مقياس مدخل إلى علم الأثار

الدرس الرابع: المسح الأثري

يعد الاهتمام بالمسح الأثري عنصرا هاما وضروريا ،فهو الذي يسبق الحفر في أي موقع من المواقع القديمة ،وهو الضمان الحسن لحسن النتائج التي ترجو البعثة الأثرية الوصول إليها، من هذا المنطلق يعد المسح الأثري عملا تمهيديا لا غنى عنه لبعثة الحفر ولا خلاف على ضرورته وأهميته.

1 – معنى المسح الأثري:

المقصود بالمسح الأثري هو ارتياد المواقع القديمة التي بقيت آثار الإنسان على سطحها لاختيار الموقع الذي يمكن إجراء الحفائر فيه، وغالبا ما تكون هذه الآثار قد تأثرت بالكثير من العوامل المختلفة من مظاهر السطح وتغيرات الطقس وتطور الزراعة و توسع المستوطنات السكنية وما فرضته الأعمال التحصينية لهذه المستوطنات.

وليس بالضرورة أن تكون كل استنباطات الأثريين صائبة دائما لأنه في حالات كثيرة كانت هذه الاستنباطات المسبقة خاطئة ومضللة،نظرا لأن المواقع الأثرية تعطي عند الحفر غالبا ظواهر جديدة ومعقدة أكثر مما تتيحه استقراءات سطح الموقع.

ومن هنا فإن المسح الأثري لابد أن يكون كاملا وشاملا بحيث يجب فحص الموقع وكل ما يحيط به من ظواهر، وضرورة الوقوف على ما أجري فيه قبل ذلك من أعمال تنقيبية– إن وجدت – ليس فقط فيما يتعلق بالموقع ذاته، وإنما فيما يختص بالمنطقة ككل،وكذا يجب الوقوف على ظواهره التوثيقية من الناحية الجيولوجية وطبيعة التربة ونوع النباتات العشبية الموجودة فيه، ومن ثم على طبيعة الزراعة التي كانت غالبة عليه وأنواع المحاصيل التي كانت تزرع فيه.

ويرى بعض علماء الآثار أن المسح الأثري لم يعد فقط وسيلة لتحقيق موقع أثري بل أصبح هدفا علميا يسعى إلى إبراز كثير من أوجه الحياة القديمة لأولئك الذين عاشوا في الموقع الممسوح خلال أزمنته الغابرة، لاسيما فيما يتعلق بحياتهم وكذا النواحي التجارية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية التي كانت تربطهم بغيرهم من المجتمعات المعاصرة لهم، حيث تكون الظواهر الأثرية التي لازالت باقية على سطح الموقع كافية –في كثير من الحالات– لإعطاء مثل هذه النتائج من

خلال تحليل عينات الأبنية والمواد المستخدمة فيها، وعمل المقارنات اللازمة لربطها مع غيرها من الأبنية في المواقع الأخرى..

2- منهج المسح الأثري وتطوره:

شهد منهج المسح الأثري تطورات عديدة وهامة ،تتحدد في أربع نقاط رئيسية هي:

أ- دراسة الموارد الطبيعية للمواقع الأثرية من نباتات وطمي وأحجار ومعادن وغيرها من المواد التي عرفت عن استخدامات الإنسان القديم، وربط هذه الدراسة بما يتم العثور عليه في المواقع الأثرية التي تجري أعمال المسح الأثري فيها.

ب- دراسة التغيرات السطحية لهذه المواقع فيما يتعلق بمجاري المياه من الأودية والأنهار والسيول،وفيما يختص بالآبار والعيون والمياه الجوفية وتغيير مناسيبها خلال الأزمنة التاريخية المختلفة، لما لها في الغالب من ارتباطات متعلقة بأبحاث العصور التاريخية القديمة،ولما لها من علاقة مباشرة بوجود الاستيطان البشري أو الإسكان الحضاري وانعدامه.

ت- دراسة التغيرات الجغرافية التي حدثت على طبيعة هذه المواقع ولا سيما من الناحية التضاريسية لمعرفة التحولات السطحية التي طرأت عليها خلال عمرها الطويل عبر آلاف السنين. وخاصة ما يتعلق منها باتساع المناطق الرملية، وتقلص الأراضي الزراعية نتيجة لزحف الرمال، أو لسوء أعمال الري والصرف ونحو ذلك، لما لهذه الدراسة من إمكانية الوقوف على حدود مواقع الإسكان الحضاري وتواريخها.

ث- دراسة التغيرات المناخية التي حدثت لهذه المواقع خلال وبعد العصور الجليدية المعروفة ،أو التي حدثت فيه نتيجة بعض الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين والانخفاضات التضاريسية ونحوها،لما لهذه الدراسة من فائدة في التعرف على تحولات مناسيب مياه البحار والتعرف من ثم على إمكانية الحياة البشرية في المواقع الأثرية

المختلفة، وقد ظهرت أهمية هذه الدراسات مؤخرا في اكتشاف حضارات المستوطنات البشرية على سواحل الخليج العربي، وحول شواطئ البحيرات.

3- متطلبات المسح الأثري ومراحله:

للمسح الأثري متطلبات رئيسية من الناحيتين العلمية و العملية نوجزها فيما يلي:

أ-الدراسة التحضيرية: تشمل هذه الدراسة تحديد المساحات الجغرافية التي يجرى المسح الأثري فيها ،ويمكن تقسيم هذه المساحة – إذا كانت شاسعة – بطريقة طبوغرافية أو بيئية يراعى مسح كل منها على حدة حتى لا تتداخل مناطق السهول مع المرتفعات ،ولا تتداخل الأودية مع الهضاب أو المناطق الصحراوية وهكذا ، فإذا وجدت بعض الدلائل الأثرية المعروفة في الوحدة البيئية قبل البدء في المسح الأثري مثلا وجبت دراسة هذه الدلائل وتصنيفها كي تكون مقياسا للتعرف على نوعية الآثار التي يمكن العثور عليها أثناء عمليات المسح،كذلك وجبت عملية مقارنة الآثار الناتجة من داخل المنطقة بالآثار الناتجة من خارجها من أجل الوصول إلى تحديد الفترة الزمنية التي ترجع إليها هذه الآثار قبل البدء في عملية المسح الأثري.

ب- تصوير الموقع: من المتطلبات الهامة للمسح الأثري التصوير الجيد ليس للموقع الأثري فقط، وإنما للمناطق المحيطة به أيضا، لأن هذا التصوير يدعم أولا العمليات الدراسية لهذا الموقع قبل بدء الحفرية،ويدعم ثانيا تحليل الخرائط المتعلقة به، ويدعم ثالثا ملاحظات التجوال بين ربوعه، ويجب أن يستعان بالتصوير الجوي للمواقع الأثرية لأن الصور الجوية تفيد كثيرا في إزالة العديد من الغموض عن المنطقة الأثرية والمناطق المتاخمة لها،وتفسر لنا الكثير من التفاصيل المتعلقة بالموقع الأثري ذاته،ذلك لأن التكوينات الطبيعية للتربة المصورة جوا تعطي صورة عامة وواضحة لتفاصيل الموقع الأثري قبل بدء الحفرية، وتكون بذلك ذات فائدة كبرى في تخطيط منهج الحفرية وحجمها.

ت- عمل الخرائط: لا شك أن إعداد خرائط تفصيلية للموقع الأثري قبل بدء الحفرية يعد أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لأعمال المسح الأثري، لأنه يساعد على تحديد المواقع التي يراد الحفر فيها،ومن هذه الخرائط نذكر الخرائط الجغرافية المعمولة بمقياس 1\50.000 ونحوها، وكذا

الخرائط الجيولوجية التي تتضح عليها تضاريس المواقع التفصيلية، لأن هذه التضاريس تعد عاملا مساعدا على إظهار التغيرات الجيولوجية التي حدثت في منطقة المسح الأثري.

ج- **تجهيزات بعثة المسح الأثري:** تعد تجهيزات البعثة هي آخر المطاف بالنسبة لمتطلبات هذا العمل،ومن الضروري أن تجهز هذه البعثة بوسائل النقل الملائمة لطبيعة الموقع الذاهبة إليه،وأن تتزود بالحراسة اللازمة وبمواد التموين الكافية،لأن المسح الأثري غالبا ما يتم في أماكن منعزلة وبعيدة عن العمران ،كما يجب أن تتوفر على وسيلة للنقل.

4-أعضاء بعثة المسح الأثري: يجب أن تحتوي هذه البعثة على مجموعة كاملة من الخبرات المتخصصة توجز فيما يلي:

أ- **علماء الآثار:** وهم على رأس البعثة، وفيهم تتركز همزة الوصل بين التخصصات المختلفة التي تضمها هذه البعثة،وعليهم أن يكونوا ملمين إلماما كاملا بإستراتجية المسح الأثري، وقواعد استخدام أجهزة التحديد الجغرافي والآلات المساحية،كما أن عليهم أن يكونوا ملمين أيضا بالدراسات التي أعدها المؤرخون والجغرافيون عن الموقع الذي يجرى مسحه،والذي لاشك فيه أن للأثري عينا يتميز بها عن غيره، فنجده دقيق الملاحظة دوما...

ب- **علماء النقوش والكتابات:** يتدخل هؤلاء في حالة العثور أثناء المسح على النصوص المدونة على الحجارة مثلا كالكتابات اللاتينية والليبية، وكما هو معروف النص هو سيد الأدلة والبراهين الأثرية على الإطلاق.

ت- **المساح والرسام والمصور:** وهم عناصر رئيسية في البعثة، حيث يقوم المساح بعمل الخرائط المساحية، وتوقيع الخطوط الكنتورية، ورسم المخططات الشبكية، وإسقاط المناطق المختلفة التي يشتمل عليها الموقع الأثري على هذه الخرائط مستعينا في ذلك بالنقاط الطبيعية الثابتة والمتحركة بالنسبة لمستوى سطح البحر ونحو ذلك، ويقوم الرسام برسم كل ما يجده من بقايا معمارية رسما هندسيا مفصلا بالمساقط والقطاعات

والواجهات وغيرها من التفصيلات المعمارية والزخرفية، ويقوم المصور بتسجيل الموقع وما فيه من ظواهر أثرية وطبيعية قبل بدء الحفر فيه.

ث- علماء آخرون: يساعد في بعثة المسح الأثري علماء البيئة القديمة والكائنات الحية والنباتات والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها، وتحدد هذه التخصصات غالبا وفق احتياجات البعثة وما تتطلبه طبيعة الموقع الأثري والدراسات المسحية اللازمة له، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية هذه التخصصات جميعا بالنسبة لعلم الآثار عند الحديث عن العلوم المساعدة في الدرس الثاني.

5 – التقرير العلمي عن المسح الأثري:

إن النشر العلمي عن أعمال المسح الأثري لابد وأن يشتمل على تحديد الموقع الممسوح،وعلى خرائط المنطقة المشتملة عليه،وهي الخرائط التي توضح العلاقة بين هذا الموقع و بين كافة المواقع والظواهر المحيطة به، وهو أمر يتطلب عملا مفصلا و دقيقا تقع مسئوليته على عالم الآثار المنقب أكثر من غيره.